صفحات خالدة
من تاريخ الاسلام والعروبة

للدكتور سليمان حزين
مدير جامعة أسيوط

كتب الله للعرب أن يرثوا ملك الرومان وملك الفرس ، ولكنهم مع ذلك حين توسعوا لم يتصف توسعهم من قريب ولا من بعيد بصفة الاستعمار أو الاستغلال أو السيطرة أو الطغيان . ولا شك أن العرب قد اختلفوا عن غيرهم من الأمم فى أمر بالغ الأهمية . ذلك أنه عندما آن الأوان لتجتمع للأمة العربية أسباب القوة والسلطان . ظهر من العرب دين جديد ، بشر صاحبه بروح الأخاء والمساواة ، كما بشر بأنه لا تفرقة بين الإنسان وأخيه الإنسان إلا على أساس الايمان والتقوى ، أما الجنس وأما السلالة ، وأما اللون ، فهى كلها أمور ومقاييس لا يجوز أن تجرى على أساسها المفاضلة بين الأفراد ولا بين الشعوب ، وكان هذا المبدأ مبدأ خلقيا ساميا لم يسبق له نظير فى التاريخ كله ، بل كان هذا المبدأ ثورة على ماتعرف عليه العالم القديم فى عهود اليونان والرومان والفرس . ولذلك فان العرب عندما خرجوا برسالتهم إلى العالم الخارجى ، وبدءوا ينشرون لواء الإسلام فى الشرق والغرب اضطروا إلى محاربة حكومات الطغاة التى كانت تسيطر على البلدان المجاورة لهم ، ولكن شعوب تلك البلدان على النقيض من ذلك وجدوا فى العرب ورسالة الاسلام التى يحملونها مخرجا مما كانوا فيه من وملاذا لما فرض عليهم من طغيان ، فرحبوا بالرسالة الجديدة ، وبلواء الإسلام الذى أظلهم بما نشر فى أرجاء المشرق القريب من حرية ومن أخاء ومن مساواه ، وحتى الشعوب أو العناصر التى لم تقبل الإسلام ، أو لم تدخل فيه إلا رويدا رويدا ... حتى هذه العناصر لم يكن تحمسها للتخلص من العهود الاستعمارية الغابرة والنصرة للعهد العربى الجديد بأقل من تحمس الشعوب والعناصر التى اختارت الإسلام ودخلت فيه عن رغبة وطواعية .

وهكذا اختلف العهد العربى الاسلامى عما سبقه من عهود فجاء عهدا ذا رساله ، وتخلص أصحابه من وصمة الاتصاف بالقوة الغاشمة التى لا تعرف غير السيطرة والطغيان والاستعمار .

ويهمنا فى هذه المناسبة أن نشير إلى حقيقتين تعتبران فى غاية الأهمية بالنسبة لمن يستعرض تاريخ التوسع العربى ليقارن بينه وبين التوسع الاستعمارى الأوربى القديم والحديث وليبرز ماهناك من فروق أساسية بين العرب وأهل أوربا حين أتيحت لكل منهما أسباب التوسع ، فأما الحقيقة الأولى فهى أن العرب حين توسعوا فى بلادهم لم يعملوا على أن يكونوا هم السادة فى الجهات التى توسعوا فيها . . ذلك أن الاسلام ذاته قد هذب نفوسهم وكبح غرائزهم ووجههم وجهة الخير والانسانية فهم لم يكونوا فاتحين ولا غزاة بقدر ما كانوا دعاة ومبشرين بعهد جديد ، ولذلك فان العرب لم يصروا حين خرجوا من جزيرتهم على أن تكون لهم السلطة أو يتركز فى أيديهم السلطان . وسرعان ماسمحت نظم الحكم الاسلامى وأوضاع الشريعة الجديدة لسكان البلاد الأصليين فى البلاد التى فتحها العرب أن يحتفظوا لأنفسهم بالسلطة الفعلية فى بلادهم ، وهكذا ظهرت عناصر جديدة من غير العرب الأصليين ، بل من سكان البلاد المفتوحة ومنها إيران وأطراف الأمبراطورية البيزنطية ، وجمعت هذه العناصر من أسباب القوة والسلطة فى بلادها ما لم يتيسر للعرب أنفسهم ، ولن نستطيع أن نجد لمثل هذا الذى حدث فى أيام الأمبراطورية العربية الاسلامية نظيرا . لا فى عهد الأمبراطورية الرومانية القديمة ، ولا فى عهد الأمبراطوريات الأوربية الحديثة من فرنسية وبريطانية وغيرها ، حين خرج الأوربيون ليسيطروا على المستعمرات وليحولوا بين أبنائها وبين أن ينالوا حظا من التعليم أو فرص الحياة التى تتيح لهم أن ينافسوا أبناء الدولة المستعمرة أو يشاركوا معهم فى الجاه أو السلطال .

وأما الحقيقة الثانية التى ينبغى ألا تغيب عنا ، والتى طمستها للأسف الشديد أغلب الكتب والمراجع الأفرنجية التى تصدت للكتابة عن تاريخ العرب والإسلام فهى أن الإسلام منهم بأنه دين انتشر بالقوة وبحد السيف . وليست هناك تهمة أبعد عن الحق وأوغل فى البهتان من هذه التهمة الباطلة ،فالإسلام بحكم أصوله المقررة لا يمكن أن يفرض على الأفراد أو على الشعوب ، بل أنه دين يقوم على أساس انعدام الإكراه وعلى ترك الحرية المطلقة للناس ليدخلوا فيه بمحض اختيارهم وأننا إذا رجعنا إلى التاريخ العسكرى ذاته لانتشار الفتوح العربية الأولى لوجدنا أن بعض الفتوح التى تمت كانت القبائل العربية تشترك فيها بصرف النظر عن ديانتها وهناك من الأدلة القاطعة ما يثبت أن بعض القبائل العربية التى احتفظت بمسيحيتها ولم تدخل الإسلام كانت تدخل جنبا إلى جنب مع القبائل العربية التى أسلمت ، وفوق ذلك إذا

ما استعرضنا تاريخ التوسع الإسلامى وانتشاره كدين جديد فى جهات واسعة من العالم كداخلية آسيا وشرقها ، أو كالمحيط الهندى وجنوب شرق آسيا واندونيسيا ، فإننا لا نلبث أن تبهرنا الحقيقة الكبرى وهى أن الإسلام لم ينتشر فى هذه البلاد بحد السيف ، ولا فى ظل الامبراطورية العسكرية ، وإنما انتشر كدين سمح بشر به أبناؤه من التجار والملاحين وغيرهم ، وكان تبشيرهم ، بالدين الجديد خالصا لوجه الله ، وخاليا من كل غرض استعمارى فهو تبشير يختلف اختلافا تاما عما نراه من نشاط المبشرين الأوربيين فى أفريقيا وغيرها فى العهد الحديث ، أما داخلية آسيا فإن الثابت أن الإسلام إنما انتشر فيها فى وقت هبطت فيه القوة العسكرية العربية وانكسرت فيها شوكت العرب من الناحيتين العسكرية والسياسية عندما خرج المغول من أطراف الصين وفتحوا العالم الإسلامى ودوخوا دول العرب والمسلمين فى غرب آسيا وحطموا بغداد وغيرها من مراكز الفكر والثقافة الإسلامية فى ذلك العهد ، ومع ذلك لم يلبث الإسلام أن فتح قلوب المغول فى أواسط آسيا فانتشر بينهم وبلغ مشارف الصين الشمالية ، وهكذا جاء انتشار الإسلام فى هذا الجزء من العالم القديم معاصراً لعهد من عهود ضعفه العسكرى ، مما ينفى عن العرب والاسلام صفة التوسع ونشر الثقافة بحد السيف كما تحاول الدول الاستعمارية الأوربية الحديثة .

هذه هى الصورة التى اتخذها توسع العرب بالبر والبحر ؛ وهى صورة تفرد للعرب وللاسلام مكانة خاصة فى التاريخ ، وتنفى عنهم تهمة التوسع الغاشم أو الطغيان الاستعمارى ، ومن الخير لنا ونحن فى مجال النهضة المعاصرة أن نذكر هذه الصفحة الخالدة من تاريخنا المجيد .